١ ـ الاسلام والفنون الجميلة

للأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

يمتاز الإسلام بأنه أوجد لنفسه بنفسه فناً جميلاً كيّفه بعبادته ، وبث فيه روحه ، وغذّاه بتعاليمه حتى استقام عوده ، ونضجت شخصيته ، وتجلت للعيان مميزاته . ولا شك أنه لبيان هـذه الميزة ينبغي أن نقارن بين الإسلام وبين ما سبقه من الأديان من حيث موقف كل منها من الفنون الجميلة ثم نعقب على ذلك ببيان الطرق التي أتيح بها للاسلام أن يخلق فناً جميلاً إن اتفق مع الفنون السابقة عليه في بعض العناصر الزخرفية فقد اختلف عنها أشد الاختلاف في المبادئ الأساسية والاتجاهات التي سار فيها[1]

فإذا عدنا إلى الوراء آلاف السنين لنشهد الإنسان وهو يتقلب في أطوار حياته المختلفة على ظهر البسيطة لوجدناه يكافح الوحوش ليعيش ، ويحاربها ليوجد لنفسه بينها مكاناً أمينا يطمئن فيه على حياته ، ولرأيناه ما كاد يلقي سلاحه ، ويفرغ لنفسه بعض الشيء بعد هذا الجهاد المضني ، ويأوي إلى كهفه ليستريح ويستقر به المقام في هذا المسكن الجديد ، ويرضي فيه حاجات جسمه من مأكل ومشرب وملبس حتى يقوم إلى جدران هذا الكهف يزخرفها وإلى آلات صيده يجملها ويزينها

ولسنا هنا بصدد الفصل في سبب اشتغاله بهذه الفنون الجميلة ، فليكن الدافع إليها فيض النشاط الحيوي فيه ، أو لتكن الغريزة هي التي أوحت إليه أن يحاكي بالرسم ما يراه في محيطه ، أو ليكن اعتقاده في أن رسم الحيوان يفيده أو تكرار رسمه يكثره ، أو رسمه وقد اخترق السهم أحشاءه يجعل صيده هيناً سهلاً عليه هو الذي حمله على هذا العمل ، أو لتكن هذه العوامل مجتمعة هي التي جعلته يشتغل بهذه الفنون فلن يغير هذا من الحقيقة شيئاً : ذلك أن الإنسان قد عرف الفنون الجميلة قبل التاريخ واستخدمها في حياته . لقد وجد نفسه ضعيفاً أمام قوى الطبيعة : أمام قوى تعمل من وراء ستار ، رأى براكين ثائرة يتطاير منها الحمم فتصيبه في نفسه وفي ماله ، وسمع رعوداً صاخبة تكاد تصم بزمجرتها أذنيه ، وأحس برياح عاصفة تدفع به أمامها ، وتلقى في طريقه بأعظم الأشجار وأضخمها ، ولمح بروقاً خاطفة ترسل إليه بضوئها فتملؤه خوفاً ورعباً . هذه المظاهر المختلفة التي لا يعلم سرها جعلته يعتقد بوجود قوى عظيمة تؤثر في كيانه دون أن يراها . لذلك فكر في استرضائها على قدر ما سمح له به عقله المحدود فلجأ إلى الفن الجميل يستعين به على بلوغ مأربه فنحت التماثيل ، وأقام الأنصاب ورسم الصور

وإذا كانت الفنون الجميلة من نحت وتصوير ونقش قد خدمت الإنسان قبل التاريخ في ديانته الساذجة البسيطة فقد خدمته أيضاً في العصور التاريخية ، عند ما تعقدت الأمور الدينية بعض التعقيد

فلقد اعتقد المصري القديم بعودة الروح بعد موت الجسم ، ورأى لزاما عليه أن يحفظ ذلك الجسم ، وأن يضمه بعد موته في محيط يشبه محيطه في الحياة الدنيا ، حتى تطمئن الروح وتأنس بجسمها إذا ما عادت إليه ، فاستعان بالفن الجميل على تحقيق هذه

(١) ليست أول من فكر في هذا الموضوع فقد سبقني إلى التفكير في كثير من نواحيه علماء من الأجانب أجلاء منهم : ماسبيرو الفرنسي وكونل الألماني ولام السويدي وقد كانت آراؤهم ماثلة في ذهني وقت إعداد هذا البحث

وللسبط أيضاً قصيدة أخرى مطلعها :

أبرق بدا من جانب الغور لامع ... أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع

ومنها :

ولما تجلت للقلوب تزاحمت ... على حسنها للعاشقين مطامع
لطلعتها تعنو البدور ووجهها ... له تسجد الأقمار وهي طوالع[3]

هـذا هو ابن الفارض ذو الشعر الرقيق الفائق ، وشاعر الحب والجمال الروحانيين . هـذا هو المزين لعرش الحب العاقد أكاليل الجمال على رءوس الحواري والحسان في خيال الجنان . هذا هو المعزي لأصحاب القلوب الدامية الهائمة في بيد الطبيعة الجميلة . هذا هو المكفكف لدموع البائسات المخفقات في نيل عذوبة الحب الذي هو رمز الحياة والطبيعة ، يسود القلوب ويتحكم في الأنفس الرفيعة . ليكن لنا ابن الفارض عبرة الدهر في ميدان الرقة والعطف . وليكن ابن الفارض صورة للحياة الجميلة التي نستعذبها ونستذيقها أبد العيش . فليطب هانئاً في مثواه ومرقده . وليعم نومه الهادىء العميق ؛ فلن يصغي إلى أنين العاشقين ، ولن يسمع زفير المتيمين

يوسف يعقوب مسكوني

(١) ديوان ابن الفارض ص ١١٧ ، وهي آخر الديوان المذكور ، وتشتمل على أربعة وخمسين بيتا

العقيدة ، فزينت جدران القبور بنقوش تمثل حياة الميت ، ونحتت له تماثيل تمثله في حياته لتحل فيها الروح إذا ما انحل الجسم أو أصابه عطب ، وأودعت هذه التماثيل القبور مع الجثة ، كما وضع معها أيضاً ما كان يستعمله الميت فى حياته ، وروعى فى تشييد المدافن أن تكون منيعة لتحول بين هذه الأشياء وبين عبث العابثين ؛ ولتظل كذلك فى حرز أمين . وإذا كانت عقيدة البعث قد استفادت من فنون النقش والتصوير ، فالدين المصرى القديم بآلهته المختلفة ومعابده الكثيرة قد انتفع بهذه الفنون أيضاً إلى أبعد حد ، فنحتت التماثيل العظيمة للآلهة ، ونمقت جدران المعابد بالزخارف الرائعة ، وطليت بالألوان الزاهية الجميلة

ولم يختلف الحال فى بلاد اليونان القديمة عنه فى مصر الفرعونية ، إذ نجد أن الديانة اليونانية قد استعانت بفنون النحت والنقش والتصوير على إبراز فكرتها وتجسيم عقائدها ، إذ ابتدعوا لأنفسهم آلهة تشرف على شئونهم ، وترمز إلى مثلهم العليا ، وتخيلوا هذه الآلهة على صورة الإنسان وأفرغوا جهدهم فى نحت تماثيل لها كانت أجل وأروع ما أخرجته يد البشر ، خلدت ذكر اليونان على صفحة الزمن ونقشت أسماء آلهتهم فى سجل القدر

وما كانت أمم الشرق القديمة من بابليين وأشوريين وحيثيين وغيرهم لتشذ عن مصر واليونان فى هذا السبيل ، بل استخدمت هى الأخرى الفن الجميل فى عبادتها الوثنية

واليهودية أول دين سماوى نادى بالوحدانية ، جاء والوثنية هى الدين الشائع بين أمم الأرض جميعاً ، والفنون الجميلة من حفر ونقش وتصوير ونحت هى عماد هذا الدين وقوامه ، فلكى يخرج الناس من ظلام الوثنية إلى نور الوحدانية كان من الضرورى أن يحول بينهم وبين هذه الفنون . وتشددت اليهودية فى هذه الحيلولة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً فحرمتها تحريماً صريحاً إذ جاء فى التوراة فى الأصحاح العشرين من سفر الخروج : « لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ، ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت ، وما فى الماء من تحت الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلهك إله غيور » وقد قضى هذا النص على الفنون الجميلة عند اليهود قضاء مبرماً فلم تستخدمها كغيرها من الأديان التى سبقتها ولم تحاول أن تجندها لخدمتها . وإذا كانت الحضارة اليهودية قد بلغت أوجها فى عهد داود وسليمان فتقدمت الصناعة ونهضت التجارة وازدانت فلسطين بما شيد فى ذلك العهد من قصور ومعابد « ومحاريب وتماثيل وجفان كالجواب » أشار إليها القرآن الكريم فى سورتى النمل وسبأ ، كما أشارت إليها أيضاً كتب التاريخ ، فقد استعان اليهود فى ذلك بالأجانب من مصريين وفينقيين وآشوريين

على أن اليهودية لم تنتشر ، وبقيت الوثنية دين الكثرة من سكان العالم ، وتأثر الرومان فى دياناتهم الوثنية باليونان ، وكما خدمت الفنون الجميلة الدين اليونانى القديم ، كذلك خدمت الدين الرومانى

وظهر الدين المسيحى ، واعتنق المسيحية كثير من بنى إسرائيل ثم انتشرت فى الإمبراطورية الرومانية بسرعة عظيمة بسبب نضوج الفكر الإنسانى ، وعدم ارتياحه إلى طقوس العبادة الوثنية . وقد قامت المسيحية تدعو إلى ترك الدنيا والتجرد منها والانقطاع إلى الآخرة والإقبال عليها . ولعل خير ما يترجم عن دعوتها هذه قول السيد المسيح فى الأصحاح السادس من إنجيل متى . « لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ، لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون . » ومثل هذه المبادئ ليس فيها ما يشجع على ازدهار الفنون الجميلة لأنها تنكر جمال هذه الدنيا وتطالب بكبت ما فى الإنسان من ميول وغرائز ، لذلك لم تبتدع المسيحية فناً جميلاً بل انتفعت بالفن القائم بين يديها ، وما الفن المسيحى المعروف إلا فن وثنى لبس رداء المسيحية ، فهو فن مسيحى فقط باعتبار ما يؤديه من خدمات للدين المسيحى أو المسيحيين لا باعتبار أنه يعبر عن فلسفة هذا الدين لأن فلسفة هذا الدين — كما رأينا — قوامها الزهد والتقشف وكلاهما والفن الجميل على طرفى نقيض .

(يتبع)

محمد عبد العزيز مرزوق
الأمين المساعد بدار الآثار العربية